نحو أدب إسلامي مقارن

د. أحمد حنطور
مصر

كان لنشأة الأدب المقارن وتطوره في ظل البيئة الأوربية دور كبير في أن تترك الدراسة الأوربية له بصمات واضحة المعالم بالغة التأثر في منحى الدراسات المقارنة واهتمامات الدرس المقارن في الأدب العربي، ومن ثم جاءت مناهج الدراسة لدينا تلتقي مع منحى الأوربيين في التناول، وموضوعات المقارنة صدى لاهتماماتهم في الأدب الغربي المقارن، حتى أضحت الأجناس الأدبية والنماذج البشرية والمذاهب الفنية في الآداب الأوربية تحتل مكان الصدارة في دراستنا للأدب المقارن، وقد يأتي القول بأن هذا فعل الريادة في المرودين تعليلا لذلك، ولكن هذا لا يدفع عنا حرج الاستنامة في التلقي والتفريط في حق العلم.

ذلك أننا نخطئ كثيراً في حق أنفسنا حين يقف دور الدراسات العربية عند التعريب والنقل، فليس هذا من دأب التواصل الحقيقي للحضارة بين الشعوب الذي تنشده كل أمة، ولا من مصلحة الأهداف القومية من وراء الدراسة المقارنة، وإنما واجب الحفاظ على الهوية وتدعيم الثقافة الوطنية، واتخاذ دور فاعل في مسيرة الحياة الأدبية يهتف بنا أن نسبر غور هذه الدراسات والوقوف على ضوابط المنهج وأبعاد الموضوعات والتيار الفكري الذي ينتظمها لا للنقل، وإنما لاستنباط ما يوائم طبيعة الأدب العربي والإسلامي، ويدلل على دوره المؤثر في مسيرة الحياة الأدبية. فكثير من الأجناس الأدبية الأوربية لم تبلغ حد الظاهرة في أدبنا العربي، والحضارة الأوربية بعد كبوتها في العصور الوسطى عندما توجهت إلى الحضارة العربية لتنهل من معينها لم تقف عند مجرد النقل، وإنما بنت عليها وولدت منها بعض فنونها وأجناسها الأدبية المعاصرة. والدارسون الأمريكيون لم يبيحوا لأنفسهم اقتفاء أثر المدرسة الفرنسية في المقارنة، وإنما اختطوا لأنفسهم مدرسة لا تقف عند شرط التأثير والتأثر، ولا تهمل دور النقد في حكمه الجمالي على الأعمال الأدبية المتشابهة.

ولعل ذلك كله يلقي مزيداً من التبعة على جيل الرواد من دارسي الأدب المقارن، والذين تمثل دورهم في النقل والتقليد لا التطور والتجديد، ويستنهض همم الأجيال اللاحقة للبحث عن ذاتها وسط الركام، والاهتمام بقضاياها عند المقارنة مع الآداب الأجنبية، وبخاصة أمام ظهور تيار العولمة الذي يسعى إلى السيطرة الغربية على الآداب العالمية تحت شعار إنسانية الأدب.

وقد وجدنا في هذا السبيل جهودا تمثلت في كثير من كتب الدكتور حسين مجيب المصري التي ألفها في المقارنة بين الآداب الإسلامية الأربعة: العربية والفارسية والتركية والأوردية، وفي كتاب الأدب المقارن للدكتور طه ندا، وفي الأدب المقارن للدكتور محمد عبدالسلام كفافي، والأدب المقارن للدكتور محمد السعيد جمال الدين، وغيرهم من المتخصصين في دراسة اللغات الشرقية وآدابها. ومحاولاتهم في ذلك تنبع - فيما نرى - من فتح ميادين دراسية

لكتاباتهم الإسلامية، ومن ثم وجدناهم يعنون بدراسة آداب البلاد الإسلامية على التعميم في المصطلح، ويهتمون بتناول موضوعات علم اللغة المقارن.

وقريب من هذا المنحى ما وجدناه في كتاب مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن للدكتور الطاهر أحمد مكي، فقد ذهب إلى تتبع نقط التلاقي بين الآداب الإسلامية ذات اللغات والمذاهب المختلفة، والتي تصلح مجالاتها للأدب المقارن، دون أن يعنى بمدى الالتزام في هذه الموضوعات بالتصور الإسلامي في المعالجة، فجاء مرة أخرى مقارنا بين آداب البلاد الإسلامية في الموضوعات المشتركة أو المختلفة بين هذه الآداب.

ونحن نعتقد بضرورة الوقوف في دراسة العناصر عند حد الوفاء بإثبات التأثير والتأثر، والتعرف على دورها في تحقيق السمات المشتركة بين الآداب، ومراعاة جانب التصور الإسلامي في الأعمال الأدبية عند القيام بالمقارنة بينها، ومن ثم لا مناص في هذا المدخل من تحديد مفهوم الأدب الإسلامي وبيان طبيعة المقارنة فيه. فالأدب الإسلامي لدى كثير من الدارسين هو: التعبير الفني الهادف عن الكون والحياة والإنسان من خلال التصور الإسلامي، أو هو الذي يرسم الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود(١). وهو بهذا المفهوم يتسع ليشمل شتى الموضوعات والصور التي تزخر بها الحياة، وتتنوع أشكاله لتحيط بسائر الأجناس والأشكال الأدبية شريطة الحفاظ على قيم الإسلام الثابتة فيما يدعو إليه، وتتمثل طبيعة المقارنة فيه - باختصار - في تقديمه على أنه أدب إسلامي مقارن لا على أنه مقارنة بين آداب البلاد الإسلامية، وفرق كبير بلاشك يبدو في الاهتمام والمعالجة على أي من المفهومين السابقين.

ويزداد الأمر بيانا إذا علمنا أن البحث في أدب البلاد الإسلامية يدور حول شتى ما تنتجه هذه البلاد من أعمال أدبية دون تركيز على المنظور الإسلامي فيها، ومن ثم فهي تشمل ما يدخل في الأدب الإسلامي، أو ينتمي إلى غيره مقارنا بما يوجد في ساحة البلدان الأخرى من ألوان واهتمامات أدبية، وفي الأدب الإسلامي المقارن يدور البحث حول الموضوعات ذات الصبغة الإسلامية وكيفية معالجتها مع اختلاف الأدباء وامتداد الأقطار، وهذا الفرق يقتضينا الإتيان بشيء من التفصيل والتحديد معا لمفهوم الأدب الإسلامي من وجهة نظر هذه الدراسة، وهي وجهة تلتقي مع طبيعة الأدب وتنبع من داخله دون أن تكون صدى لمواقف تفرض عليه من خارجه، ودون أن تذهل عن رسالة الفن الأدبي الجميل.

وما نراه في مفهوم الأدب الإسلامي أنه يطلق ويراد به: كل ما صدر من قول فني عن أديب مسلم أو ينتمي إلى الإسلام أو تمثل مبادئ الإسلام في أدبه حين إنشائه، مادام ملتقيا في الجميع مع تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان، فالصدق الفني لا الواقعي هو المحك في دراسة الآداب، ولاشك أن أصل الفطرة الإنسانية الصافية التي خلق الله الناس عليها يكمن في كل شاعر، ويسمح له بهذا التمثل لو أراد، وفي سيرة الشاعر ما يكشف عن استعداده في هذا الجانب، وذلك مثل معرفتنا بتأثر الشاعر الألماني جوته في «الديوان الشرقي» بالتراث الديني في نتاج كبار أدباء الفرس الإسلاميين.

> حظيت الآداب الإسلامية بوشائج قوية من الاتصال والانسجام والتفاعل قديماً وحديثاً.

ومن ثم فنحن لا نعد - كهؤلاء الذين يتوسعون في المفهوم - كل أدب خلقي أدبا إسلاميا، مثل شعراء الحكمة في العصر الجاهلي، ودعوة سقراط إلى الحق والخير والفضيلة، لأنه ليس ثمة تأثر أو قصد على الإطلاق إلى مبادئ الإسلام في صياغة أعمالهم الأدبية، كما يدخل معنا بعض الأعمال التي نحّاها أهل التضييق في المفهوم الذين يرون ضرورة صدور هذا الأدب عن الأديب المسلم الملتزم بتصورات الإسلام وتطبيقاته العملية في الأقوال والأفعال، وذلك على الرغم من عدم اصطدامها مع قواعد المنهج الإسلامي لاجتهاد أصحابها المسلمين في المواءمة بين التصور الإسلامي وأخذ عناصر الإبداع لهم، وتوجه المتمثلين لمبادئه إلى الإفادة من قيم الإسلام في صياغة هذه الأعمال(٢).

ولاشك أن التنظير لدرس - أي درس - يقتضي ضرورة تحديد المفاهيم وتقنين الرؤى في ضوابط منهجية مقررة حتى تتضح معالم النظرية وجدواها، وحتى يجد التطبيق عليها طريقا واضحة ممهدة لا يتيه معها الدارس في دروب الصعاب، وتتوزع به السبل فيعود من رحلة البحث بلا حصاد، ومن ثم يأتي تحديد الدعوة إلى أدب إسلامي مقارن في نقاط تساعد على تجلية ما ندعو إليه، وتجيب عما يتعلق بواقع هذه الدراسة من تساؤلات.

أ - البواعث والأهداف:

حين نطالع مكونات الدرس الأدبي المقارن في المؤلفات العربية نجد أنها تدور في فلك المناهج

د.عبدالباسط بدر

الأوربية وتعنى - أكثر ما تعنى - بما يتردد فيها من اهتمامات وموضوعات، ولاشك أن هذا المنحى في الدراسات العربية المقارنة يفيد بالضرورة الآداب الأجنبية ويتواءم معها قبل غيرها، وفي المردود المحلي فإنه ينهض بإعطاء فكرة عن واقع هذه الآداب، ويبقى الأدب العربي الإسلامي قانعا بدور التبعية في المنهج والمحدودية في الفائدة. فإذا أدركنا تلك الحقيقة ونظرنا إلى ما يتحقق من أهداف في ظل دراسة مقارنة تنبع من وادينا وتكون لآدابنا فيها حق الصدارة في الاهتمام وقفنا على طبيعة البواعث والأهداف التي تحمل على حتمية قيام تلك الدراسة.

فمن تلك البواعث: أن دراسة الأدب المقارن تهدف إلى إثراء الآداب القومية، والتعرف على خصائصها المميزة، والوصول إلى النبع الذي تمتاح منه(٣). ودراستنا للأدب المقارن في الإطار السابق تنحصر فائدتها في بعض الجوانب التي تتعلق بالمنهج، أما الاهتمام بدراسة الموضوعات بين الآداب الأجنبية فهو لا يصل إلى الغاية في تحقيق هذه الأهداف، وذلك أن هذه الموضوعات بعيدة عن البيئة العربية الإسلامية، بل إن منها - الملحمة بمعناها الأوربي - ما يكاد يكون وقفا على بيئاتهم، ومن ثم فمن الواجب أن نضع نصب أعيننا أثر هذا الاختلاف في التاريخ والبيئة، والدوافع والأهداف، ودوره في إضعاف مدى الفائدة بين هذه الآداب وأدبنا الإسلامي، ومن ثم لا تخدم الشخصية القومية بالقدر الذي تمنحه الآداب ذات البيئات المتشابهة.

ومنها: أننا نجد المقارنة مع هذه الآداب - تبعا لما سبق - تقوم في بعض نماذجها على لون من الاعتساف، وتوصيف الظواهر والأعمال الأدبية قسرا متابعة لواقع الآداب الأجنبية، وليس أدل على ذلك من إرجاع تأثر شوقي في نظم القصة على لسان الحيوان - بناء على شرط اختلاف اللغة - إلى لافونتين وإهمال دور التراث العربي في ذلك، وإرجاع رؤى محمود حسن إسماعيل الشعرية إلى المذهب السريالي، وربط تأملاته الباحثة بالفلسفة الوجودية(٤).

وفضلا عن عدم الموضوعية في ذلك فقد ترك هذا الاتجاه آثارا سلبية على القيم الفنية الموروثة للشعر العربي - محور الأدب الإسلامي - في اللغة والموسيقى وتشكيل الصور الشعرية، بل واستمداد المعاني والموضوعات من الآداب الغربية، ومن أسف أن هذه الأعمال التي بدت صورة مكررة وتطبيقات للمذاهب الأوربية المعاصرة في الفن والنقد قد ظهرت وكأنها تسعى إلى تفريغ أدبنا العربي من مضمونه ومحتوى الأصالة فيه، وتقيمه شكلا أجوف قابلا كل معنى غربي غريب، وتوظف رموزه وتستدعي شخصياته لا لتدعم مقوماته الذاتية وتشحذها، بل لتزري بها ثم لتعصف بها عصفا(٥).

ومنها: وفي مقابل الاختلاف السابق نجد الآداب الإسلامية حظيت بوشائج قوية من الاتصال والانسجام والتفاعل قديما وحديثاً. وذلك يدفعنا إلى النظر في آداب شعوبنا الإسلامية التي أدى ذلك الاتصال بينها إلى الامتزاج الوثيق بين فنونها، والتأمل في نتائج هذا الامتزاج وانعكاسه على طبيعة هذه الآداب في ضوء ما يتطلبه منهج الدرس المقارن ومبادئه التي نقف عليها عند التعرف على المنحى والإطار.

وقد أشار أحد الباحثين إلى طبيعة الامتزاج ودوره في جعل الأدب المقارن أصلح ما يكون للأخذ به وتطبيقه على دراسة الآداب الإسلامية، في نظرة تجمع بين فهم الواقع وما يتصل بطبيعة دراسته من بواعث ويتطلبه من أهداف، في قوله: «إن هذه الآداب الإسلامية متداخلة متكاملة كأوضح ما يكون التداخل والتكامل وإلى الحد الذي يجعل من بعضها امتدادا أو تتمة لبعض، ولا غرو فقد كانت في ظل الإسلام نشأتها، مما جعل حتما من الحتم أن تستمد من كتاب الله المبين وحديث رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وتعبر بلغة الضاد أو تستعير منها وتستعين بها للتعبير، ولذلك ملحوظ الأثر في الفارسية والتركية اللتين تضمنتا ما لا يحصى كثرة من الألفاظ والعبارات العربية، ومن حيث كان اللفظ قالبا للمعنى موصول الصلة به، انسربت المعاني وما ترتب عليها في شتى جوانب التراث العربي إلى تراث الفرس والترك بعد الإسلام، مما أفضى ضرورة إلى انعقاد الرابطة الوثقى بين تلك الآداب الإسلامية الثلاثة، وعلى نحو يستحيل فيه بت الصلة بينها في تصورنا لها على ما ينبغي أن يكون ذلك التصور، وإلا كان علمنا بالجزء من دون الكل، وهذا عيب حبذا الالتفات إليه كيما نبرأ منه، ونقص أولى بنا أن نذكره ليذكرنا بالأكمل الأفضل (٦).

ومنها: ضرورة التوجه إلى معرفة الذات قبل الاهتمام بمعرفة الآخرين، فالأدب الإسلامي يشكل

وحدة أدبية متمازجة، وإذا كنا نريد التعرف على أبعاد ثرائه، وطبيعة تفاعله مع غيره من الآداب، فمن الواجب معرفة هذا الأدب أولا: شخصيته، وامتداده، والعوامل المؤثرة فيه، ومسيرته، وامتزاجه بغيره من الآداب، فبهذه المعرفة يمكن الوقوف على ما يتوافق أو يغيب عن الساحة الأدبية لدينا من أجناس وظواهر وأشكال فنية، والتثبت من حقيقة الدعاوي التي وسمت آدابنا بميسم الضعف ورددناها في غيبة الوعي بحقيقة الذات في تسليم وإخبات، ذلك أن الدراسة المقارنة يتسع المجال فيها لرد المسبب إلى السبب، وترتيب النتيجة على المقدمة، وتبين الفروع وكيفية انشعابها عن أصولها، وإدراك مظاهر التشابه والتخالف والاتفاق، وذلك كله مفض إلى التحليل والتعليل وتبين الندية والضدية والتقارب والتباعد، ولكن بعد الغوص في حقائق شتى تتعلق بالتاريخ واللغة والآداب وتطور الحال على امتداد الزمان، ويلزم منه قياس المجهول على المعلوم مما يكشف الغامض مما جهل، ويزيد من تجلي صفات ما علم، كما أن مقابلة شيء بشيء هي الوسيلة الفضلى إلى تعرف أخص ما لهما جميعا من صفات». (٧).

ومنها: تجنب ذلك الأثر السيئ الذي أتى به التغريب في المنهج والدراسة، والاحتذاء والنقل دون تبصر، حيث أضحت كثير من الدراسات المقارنة لدينا لا تعدو أن تكون عملا من أعمال الترجمة والاقتباس، وإذا كان لتلقي القوافل الأولى من دارسي الأدب المقارن علومهم في الجامعات الأوربية أثر كبير في هذا التوجه (٨)، فمن الواجب على الأجيال اللاحقة تقويم المسار بما لا يقطع الصلة بمدارس الفن ولا يطغى على الأصالة الذاتية لدراساتنا الأدبية. ومن أوضح المثل لذلك الأثر كتاب «نماذج بشرية» للدكتور محمد مندور، فقد سطا فيه على كتاب النماذج العالمية في الأدب الفرنسي والعالمي، للكاتب الفرنسي جان كالفين، والنموذج الوحيد الذي أضافه الدكتور مندور هو إبراهيم الكاتب للمازني، أما البقية فمأخوذة كلها من المؤلف الفرنسي، نماذج وموضوعات ونصوصا ومنهجا(٩).

ب - الأهمية والفائدة:

ولهذا الاتجاه في دراسة الأدب المقارن أهميته البالغة وفائدته الكبيرة، وهي ترجع في بعضها إلى الفائدة العامة التي تجنيها الآداب القومية من دراسة الأدب المقارن، وترجع في بعضها الآخر إلى ما يعود على الأدب الإسلامي في مواجهة غيره على وجه الخصوص.

وأولى تلك الفوائد تكمن في تلبية البواعث الخاصة بدراسة الأدب المقارن ودوره في خدمة آداب الشعوب المحلية، سواء فيما يتعلق بالتخلص من التبعية في الدراسات المقارنة للغربيين، أو الوقوف على منهج دراسي يتواءم مع اللغة القومية ويحافظ على هويتها الأدبية، أو إثراء الآداب القومية والتعرف على الدخيل والأصيل من خصائصها الأدبية، أو إظهار الروابط بينها وبين غيرها من الآداب والتعرف على مكانتها في مسيرة الأدب والفن، أو الخروج بها من دائرة المحلية إلى العالمية، وتلك مهام عامة تتحقق فائدتها في دراسة الأدب الإسلامي المقارن، من حيث كونه لونا من الدراسات المقارنة يرنو إلى ما نتطلع إليه، وتنعكس آثارها عليه في النواحي المتقدمة.

د. أحمد محمد علي

وفي الأدب الإسلامي المقارن تتجلى بعض الحقائق البالغة القيمة، ونكتفي بالإشارة إلى ما يتعلق بالواقع والخصائص الأدبية، فمن ناحية واقع المقارنة يبدو تأثير الأدب العربي في غيره أجلى وأوضح، وفي الأدب المقارن مع الآداب الأجنبية بصورته الحالية يبدو الأدب العربي والإسلامي واقعا تحت تأثير غيره بصورة كبيرة، وذلك المظهر الأخير طالما اغترّ به الدارسون وسلبوا آدابهم ما منحتها من خصائص ومن مقومات كان لها أثرها البالغ في تاريخ الآداب. ومن ناحية الخصائص توقفنا المقارنة على ما يتحلى به الأدب الإسلامي من قيم خلقية، ورسالة إنسانية، وإمكانات تعبيرية، وصور أدبية خالدة كانت عوامل سيرورته وتأثيره في غيره من الآداب، أو بعبارة أخرى تمنحنا التعرف على أثر الخصائص الإسلامية في الأدب في الآداب العالمية.

وإذا كانت الفرنسيون يرون أن الأدب المقارن هو السبيل الدائم إلى التقريب بين الآداب الخمسة الكبرى في أوربا الحديثة فإن الأدب الإسلامي المقارن ينهض بهذا التقريب في آداب أمتنا ويتخطاه إلى الحياة الإسلامية العامة، ذلك أن تراثنا في الأدب الإسلامي لا يقف عند حد الأدب العربي فقط، بل يمتد إلى آداب أخرى مثل الأدب الفارسي والتركي والأوردي والسواحلي والإندونيسي والألباني. وهذا التوزع بين الآداب من شأنه أن يوجه النظر إلى معالم

هذه المنظومة المتكاملة من الآداب، والنظر في دور التواصل بينها في إيجاد ما يمكن أن يسمى التنوع في وحدة، والذي حفل به تراثنا الإسلامي في هذا الميدان، والبحث في تلك العوامل التي أضعفت وسائل الاتصال بين شعوب هذه الآداب في العصر الحديث حتى غابت عن ذاكرتنا الأقليات المسلمة شرقا وغربا، ولم نكد نشعر بها إلا وهي تعاني من سكرات الموت وضربات الفناء. ولعل الأدب الإسلامي المقارن تنهض قوافله في القيام بتلك المهمة في الأدب والحياة، ويثمر دوره في رأب الصدع وتوحيد ما تفرق وعلاج تلك القطيعة التي أوجدتها الصراعات المصطنعة والخلافات التي دست بين المجتمعات الإسلامية وأتت أكلها فرقة وتمزقا في البيئة الإسلامية، وثقة واتباعا لمن يضمرون لها الكيد ويغزون وجودها المادي والحضاري بكل سبيل. وكم كان للدراسات الإنسانية بقدرتها على تخطي الحدود والسدود من قدرة على إبطال دور هذه الصراعات في الفرقة والشتات، وما واقع عصر الدول والإمارات في الأدب العربي والإسلامي عنا ببعيد.

والأدب الإسلامي المقارن يخدم الدراسات المقارنة في الإطار العام ويشيع في ساحتها قدرا من التوازن المنشود في الاهتمام بالآداب العالمية على قدر سواء، ويفيد منها ويفيدها بما انتهى إليه من نتائج وحقائق في ميدان الدراسات الأدبية، فليس سبيله التقوقع أو التحزب أو الاجترار كما سيأتي بيانه، ومن ثم فهو بهذا التعاون - لا المواجهة - يقدم ما انتهى إليه في ميدان دراسة هذه الفئة المتجانسة مع غيرها من الآداب، وينظر فيما انتهت إليه الدراسة بين المجموعات الأدبية الأخرى، وليجد الدارس في النهاية الطريق ممهدا أمامه في دراسته لتاريخ الأدب العام أو الأدب العالمي.

وفي الأدب الإسلامي المقارن يمكن الوقوف على أثر العوامل البيئية في تلون الموضوع الواحد لدى الشعوب الإسلامية، فمع الروح الإسلامية السارية في الموضوع، وتشابه المعالجة في البيئات الإسلامية فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر تلك الإضافات التي تبثها البيئات المختلفة في الموضوع وتطبعه بطابعها الخاص. وبالوقوف على تلك الخصائص البيئية والعامة في الفنون الأدبية المختلفة فإن الأدب الإسلامي المقارن يقدم لنا منظومة نقدية وتاريخية متتابعة الحلقات

د. نجيب الكيلاني

تصل بين فنون القول المتنوعة في الأدب الإسلامي وتساعد في تقديم صورة متكاملة عن الأدب الإسلامي على امتداد بيئاته وتعدد لغاته، ويمكن التأمل فيها من التعمق في البحث عن العلاقة بين النظرية والتطبيق في الأدب الإسلامي، ومدى التزام البيئات في ارتباطها بالموقف والأصل الذي صدرت عنه تلك الفنون، والعوامل التي تحدد مكانها من هذاالالتزام.

جـ - الأسس والميادين:

وتتمثل تلك النقطة في الوقوف على الأسس التي تسعفنا في قيام دراسة منهجية مقارنة للآداب الإسلامية، والميادين التي تتطرق إليها تلك الدراسة، ومدى التقاء ذلك مع قواعد المنهج العام واهتمامات المدارس المختلفة، وعند التأمل نجد أن الآداب الإسلامية أوفر حظا من غيرها في النواحي المتقدمة.

فمن أسس تلك المقارنة وضوح سبل الاتصال والانتقال للأجناس الأدبية والتيارات الفنية والموضوعات الإبداعية في الآداب الإسلامية لمن أراد الوقوف عليها، فعندما انتشر الإسلام خارج الأقطار العربية، ودخلت فيه شعوب أخرى، وتأثرت به آدابها، نبتت لهذه الآداب أجنحة جديدة، أعطته بعدا إنسانيا عالميا، فقد ظهر في الأدب الفارسي منذ القرن الثالث الهجري تيار إسلامي استفاد من الأدب العربي شعره ونثره، واستفاد من القرآن والسنة، وحمل قضايا إسلامية كثيرة، وأصبح تيارا موازيا للتيار الإسلامي في الأدب العربي، وربما يتفوق عليه في بعض القضايا والفنون.

وما لبث الأدب التركي أن استفاد من الأدب الفارسي والعربي، ونهل مما نهل منه الأدبان المذكوران من المعاني القرآنية، فامتد الأدب الإسلامي إلى لغات أخرى وشعوب أخرى. وعندما تشكلت اللغة الأوردية وظهرت فيها الأعمال الأدبية كانت الآثار الإسلامية جزءا من نسيج هذه الأعمال . ومازالت الآداب الفارسية والتركية والأوردية تحمل تيارا إسلاميا واضحا حتى يومنا هذا (١٠).

ومنها: وضوح التشابه في الظواهر والتيارات والموضوعات على نحو يدل على عمق الروابط الفكرية والصلات الأدبية بين الآداب الإسلامية. وقد كشفت الدراسات المقارنة بين آداب العالم الإسلامي عن نوع فريد من التفاعل بينها لا نشهده في غيرها، وهو

دوران الموضوعات بين الآداب الإسلامية

دورات كاملة لتعود إلى الأدب الذي بدأت منه، ولكن في صيغة جديدة تجمع بين التراث والمعاصرة.

والنظر لهذه الآداب في إطار المقارنة العامة يجلي هذه الحقيقة «فحين يظهر موضوع من الموضوعات في أدب ما كمجنون ليلى في الأدب العربي القديم يتلقفه الأدب الفارسي فيحتضنه زمنا، ويطبعه بطابعه الوجداني الخاص، ويعطيه أبعادا فنية، وقيما جمالية إضافية، ثم ينتقل الموضوع إلى الأدب التركي، وهو محمل بمؤثرات عربية وفارسية، ثم يرجع مرة أخرى إلى الأدب العربي في العصر الحديث، وقد تشبع بالطابعين الفارسي والتركي، وفي كل مرة ينتقل فيها الموضوع إلى أدب من هذه الآداب يصاغ بشكل جديد، ويتلقى إضافة جديدة»(١١). ويبقى دور المقارنة الخاصة بين أعمال الأدب الإسلامي المتعددة في تأكيد هذه الحقيقة.

ومنها: أن الآداب الإسلامية على الرغم من تشابهها في الاتجاه والاهتمامات إلا أن بين نتاجها الأدبي من الفروق والاختلافات ما يجعلها تتنوع في وحدة - كما مر بنا - ويقف بنا أمام ميدان خصب من المقارنة التي ترصد المشابهات والمتباينات وما يحيط بها من تساؤلات. وفضلا عن الاختلافات البدهية مثل اختلاف اللغة، والبيئات التي احتضنت هذه الآداب، وثقافة العصور التي تتابع ظهور الآثار الأدبية فيها، فإن هناك بصمات ذاتية لا تخفى لروح الأمم صاحبة الآثار وطريقة تفكيرها، وعبقريتها في المعالجة، مما يجعلها - في النهاية - تحظى بمقارنات فنية تجمع بين المتعة والفائدة.

وميدان هذه المقارنات واسع يمتد ليشمل مجالات المقارنة المختلفة، حفيل يغنى بكثير من الموضوعات التي تندرج تحت هذه المجالات. فمن تلك الميادين دراسة الشخصيات التاريخية والنماذج الإنسانية، وفي مقدمتها شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم التي كانت محورا لكثير من أدباء العربية - شعرا ونثرا - في القديم والحديث، وفي الصدارة من الحديث عظماء الإنسانية لدى الكتاب الغربيين، وتناول الشعراء الروس له صلى الله عليه وسلم في أشعارهم مثل بوشكين وليرمونتوف(١٢)، وشخصية سلمان الفارسي في الأدب العربي والفارسي والتركي، وشخصية الحسين في الأدب العربي والفارسي والتركي والأوردي والسواحلي والألباني (١٣).

ومنها: تصوير حضارة شعب في إبداع شعب آخر، ومن المؤلفات ذات المضمون الإسلامي التي نهضت بهذا الفن كتب الرحلة إلى الحجاز، وهي في الأدب العربي الإسلامي - شرقيه وغربيه - كثيرة متعددة(١٤). وفي غير العربية لدى أصحاب اللغات الأخرى نذكر: الطريق إلى مكة للمستشرق الإنجليزي محمد أسد، وذكريات عن الحج للمستشرق المجري المسلم عبدالكريم جرمانوس، والطريق إلى المدينة لأبي الحسن الندوي (الهندي)، ورحلة الحاج علي العباس (الأسباني). بل إن بعضا من هذا التصوير جاء في إطار رحلة خيالية مثل هدية الحجاز للشاعر الباكستاني محمد إقبال، أو قالب شعري مثل الرحلة إلى الحجاز للشاعر الروسي إيفون بونين. وفي دراسة هذه الرحلات ومقارنة ذات الاتجاه الإسلامي منها مع ما وجد من تسجيل لجولات الرحالة غير المسلمين في بلاد العرب ما يقفنا على رؤى متنوعة لهذه البلاد تبعا لاختلاف منطلقات تلك الرحلات.(١٥)

ومنها: دراسة المصادر الأدبية للموضوعات في الآداب المقارنة، والوقوف على النبع الذي استرفد منه الأدباء موضوعا ما في الآداب المختلفة، ونذكر مثلا لذلك قصة الإسراء والمعراج في الحديث النبوي، فقد كانت مصدرا أثر في عديد من الأعمال الأدبية التي اتخذت إطار الرحلة إلى عالم الخلود سبيلا لبث الأفكار، أو تقديم رؤى ذاتية وصور تأملية هادفة، أو تطلع إلى عالم مثالي مفقود مثل معراج أبي يزيد البسطامي أو رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ورسالة الإسرا إلى المقام الأسنى لابن عربي، ورسالة الخلود أو جاويد نامه لمحمد إقبال (الباكستاني)، وسربال البال لذوي الحال لعلاء الدولة السمناني (الفارسي)، والتوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي. ويتصل بذلك أثر المصدر الإسلامي في الكوميديا الإلهية لدانتي، فهو يزداد تأييدا لدى الدارسين منذ أعلن عنه المستشرق الأسباني «ميجيل آسين بلا سيوسي»، ودعم ثبوته المستشرق الإيطالي «إفزيكو تشيرولي» بالدراسة التي كتبها عند نشره، وثيقة المعراج، والمستشرق الأسباني «مونيدت سنديتو» بنشره الترجمة اللاتينية والفرنسية لكتاب «معراج محمد»(١٦).

ومثل آخر يتجلى في استلهام الشعراء الصور والرموز من القرآن الكريم، واقتباسهم منه الجمل

والتراكيب، والتأثر به في التصور والمفهوم. وقد وجدنا الأثر القرآني باديا لدى الشعراء منذ العصر الإسلامي الأول، كما تنطق به أشعار: النابغة الجعدي، ولبيد بن ربيعة، وحسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وحميد بن ثور الهلالي، وبشر بن المعتمر. ومن ذلك الأثر التوجه إلى الإفادة من القصص القرآني، مثل قصة يوسف وزليخا في الأدب العربي والفارسي، وقصة استخلاف بني آدم في الأرض بين شعراء العربية ومحمد إقبال، وفي كتابة تفسير سور القرآن الكريم نظما يتضمن نسقه بعض الجمل القرآنية، مثل تفسير بعض آيات القرآن الكريم وسوره عند شعراء الفرس وتفسير سورة الإخلاص لمحمد إقبال(١٧).

وفي استيحاء معاني القرآن الكريم واستمداد كثير من صوره الأدبية وتراكيبه في نتاج شعراء العربية والفارسية، وامتداد ذلك التأثير إلى الأدباء الروس، مثل: قبسات من القرآن الكريم لبوشكين، وقصة آدم وإبليس لليرمونتون وقصائد متعددة في شعر إيفون بونين، وإلى الأديب الألماني جوته في الديوان الشرقي(١٨).

ومنها: دراسة الأجناس الأدبية، والتعرف على صور الأخذ والعطاء في الأشكال الفنية في المجال الأدبي، ومدى اتسامها بالصبغة الدينية، مثل دراسة الموشحات والمقامات، والقصص في مضمونه الأخلاقي الهادف الذي وقفنا على أمثلة منه في كتابي: المكافأة لأحمد بن يوسف، والمستجاد من فعلات الأجواد لعلي بن عبدالمحسن التنوخي، والقصص على لسان الحيوان الذي أخذ في البيئة الإسلامية انطلاقات رمزية هادفة طورت هذا الجنس الأدبي في الشكل والمضمون، فقد صاغ أبان بن عبدالحميد اللاحقي كتاب كليلة ودمنة شعرا، ونسج على منواله إخوان الصفا رسائلهم الفلسفية، وتأثر محمد بن أحمد بن ظفر بهذا النوع في كتابه «سلوة المطاع في عدوان الأتباع»، وتأثرت الفارسية الحديثة بالدور العربي في هذا الميدان تأثرا عميقا، وبترجمة حسين واعظ كاشفي كتاب ابن المقفع إلى الفارسية تأثر الأديب الفرنسي لافونتين في حكاياته الرمزية الأخلاقية، وترجم بعضا من هذه الحكايات محمد عثمان جلال في كتابه «العيون اليواقظ في الحكم والأمثال والمواعظ»(١٩).

ومنها: البحث في الموروث الديني والشعبي المشترك، مثل المدائح النبوية في الأدب العربي والتركي والألباني والأوردي، ورمضان في الشعر العربي والفارسي والتركي، والأدب الشعبي الديني عند العرب والفرس والترك، وقصص المولد النبوي في آداب البلدان الإسلامية المختلفة، وأدب النصائح بين العرب والفرس والترك.

ومنها: دراسة وسائل الانتقال والمصادر والمؤثرات بين الآداب الإسلامية من لغة إلى أخرى، وهي تتنوع في الوسائل من ترجمة المؤلفات إلى اللغات القومية، مثل ترجمة تاريخ الطبري وتفسير الطبري في القرن الرابع الهجري من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية، أو الرحلة وانتقال الأدباء خاصة وأن ظلال الإسلام كانت تظل تلك البلاد جميعا، والعوامل قوية للتوجه نحو الحواضر العلمية للإحاطة بأسباب العلم، وقد نجد من تلك الوسائل ما يتعلق بأطراف البلاد البعيدة أو الدول المجاورة لبلاد الإسلام مثل القوافل التجارية التي كانت سبيلا لنقل مبادئ الإسلام وثقافته وبعض مفردات لغته الأصلية حيث كانت تتحرك تلك القوافل شرقا وغربا.

د. حسين مجيب المصري

وهي جميعا تتميز عن غيرها من وسائل الانتقال بين الآداب الأجنبية بالمباشرة في الأخذ والتسلسل في الانتقال، فقد أخذ الفرس من العرب بعد دخولهم الإسلام، وأخذ الترك من الفرس ووصلت آدابهم إلى حد التداخل في العصر السلجوقي، وعنهما أخذ غيرهما من البلاد الإسلامية المجاورة دون إغفال للأصل العربي لارتباط لغته بكتاب الله الحكيم ودينه القويم.

وهي تتنوع في المصادر من مصادر شفوية عن طريق التلقي والتلمذة والمدارسة، وفي بعض صورها عن طريق التناظر والمحاورة. فقد كان لاحتواء الإسلام تحت خلافته عديدا من الدول ذات الثقافات المختلفة أثر كبير في توجه أصحابها إلى الحواضر العربية للوقوف على أسرار اللغة وفهم أحكام الدين الحنيف، أو استقدام علماء العربية إلى بلادهم مما ساعد على انتشار حلقات الدرس والعلم التي أسهمت في إيجاد لون من النماذج والتبادل الثقافي بين آداب تلك البلاد. أو مصادر مكتوبة تتمثل في انتقال المؤلفات بين الشرق والغرب الإسلاميين والوقوف عليها وتناولها بالشرح أو التذييل، فقد أدرك كتاب البلاد الإسلامية أهمية الاطلاع على الأدب العربي، ومن هؤلاء النظامي العروضي السمرقندي الذي يقول في

كتابه (جهار نامه): «إن على الكاتب أن يجعل ديدنه قراءة كلام رب العزة وأخبار المصطفى صلى الله عليه وسلم وآثار الصحابة وأمثال العرب، وكلمات العجم، ومطالعة كتب السلف، والاطلاع على صحف الخلف، مثل: ترسل الصاحب والصابي وقابوس، ومن دواوين العرب: ديوان المتنبي والأبيوردي والغزي»(٢٠).

ونستطيع بالوقوف على أثر هذه المصادر أن نتبصر دورها في وجود طائفة من الأدباء ارتبطت شهرتهم باللغة العربية وآدابها أكثر من الفارسية، مثل: الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ)، وعبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ)، ووجود طائفة من العلماء تكتب بالعربية والفارسية، مثل: الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ)، والإمام أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، وظهور طائفة من الكتاب تجيد لغات البلاد الإسلامية الكبرى وهي العربية والفارسية والتركية وتكتب بها جميعا، مثل: أحمد بن محمد المعروف بابن عربشاه (ت ٨٥٤ هـ) الذي كان ينشئ الرسائل للسلطان محمد الأول باللغة العربية والفارسية والتركية.

د - المنحى والإطار:

للأدب المقارن ميادينه ومجالاته المتعددة التي سبقت الإشارة إلى ما يتعلق ببعضها في الأدب الإسلامي، وحتى يكون منحى دراسة الأدب الإسلامي المقارن يتسم بالتكامل في ذاته والتميز في الإطار فلابد أن يتحلى باتساع النظرة وشمول الرؤية حتى يحيط بأبعاد ما يتصل بهذه المجالات بل وما يتقدمها من المنهج العام للمقارنة.

ولعل الحديث عن المنهج من أدق الأمور المتعلقة بهذا الاتجاه، فالقصد إلى الموضوعات يتعلق بوجود التصور الإسلامي في المعالجة، ومن ثم فكل الموضوعات التي نجد لها صدى هنا أو هناك تصلح للمقارنة مادامت ترعى القيم الإسلامية في رسالتها الأدبية في صورتها الأولى على الأقل، ويبقى أهمية توصيف المنهج بعيدا عن الضبابية والتمييع حتى يتضح المقصود بذلك المصطلح «الأدب الإسلامي المقارن» وتثبت عند التطبيق جدواه، ومن هذا الإجمال في القول يأتي التفصيل في النقاط الآتية:

١- حين نبحث في تنقل الموضوعات المقارنة في الآداب الإسلامية فإننا نجدها تتردد بين الوقوع في أدبين أو أكثر، ونقف عند حدود البلاد الإسلامية، أو نتخطاها في المكان وتغايرها في المعالجة، ومن الأوفق أن ترتبط مدى المقارنة بحدود الموضوع ووجوده، ومن ثم تتمثل الصورة الأولى في دراسة موضوع بين أدبين مختلفين، أو تتبع الموضوعات الأدبية ذات الصبغة الإسلامية ومسيرتها بين الآداب الإسلامية المختلفة. ومن الطبعي - في كثير من الأحايين - أن تكون نقطة البداية هي الأدب العربي من حيث كون لغته وموضوعاته وجهود أدبائه مصدر الكثير من أدباء العالم الإسلامي في بيئاته المختلفة، وأن تكون - في بعضها الآخر - حيث يبدأ الفن، مثل نمط الرباعي أو الدو بيت في نظم الشعر العربي الذي نشأ في الفرس - على الأرجح - وعنهم انتقل إلى العربية والتركية.

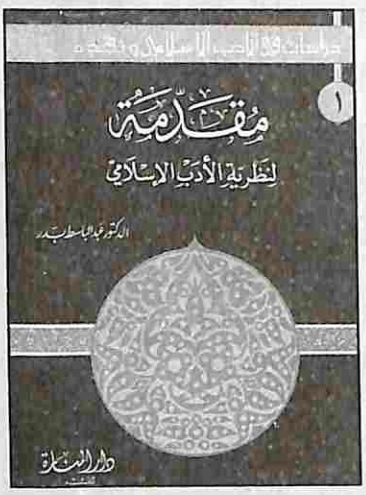

٢- أن الأدب الإسلامي المقارن يرتبط بالموضوع في الصدور، ولا يقف عند حد المقارنة بين الآداب الإسلامية كما في الصورة السابقة، ولكن يتخطاها إلى خارج المكان والطابع، فموضوع المعراج في الأدب الإسلامي المقارن تمتد المقارنة فيه إلى الكوميديا الإلهية لدانتي، وإن لم تصدر عن رؤية إسلامية، فليست الرؤى الإسلامية فقط هي محل المقارنة، وإنما الأثر الإسلامي في الآداب العالمية أيضا من صميم المقارنة، حتى ولو كان ذلك الأثر يبدو سلبا لا إيجابا، فالوقوف على توظيف أدبنا الإسلامي في طابع غير طابعه خير من الجهل بما يتم في ذلك، فضلا عن أن هذه المقارنة تكشف عن الوجه الصحيح لما زيف من أدبنا الإسلامي لدى الآخرين.

٣- والصورة الثالثة من المقارنة هي بين المعالجة الإسلامية للموضوعات وغيرها من المعالجات في الآداب الأجنبية - ثبت وقوع التأثير أو لم يثبت - فمعرفة الخصائص المعنوية والبنائية في الموضوع في الحالين يقفنا على طبيعة الأدب الإسلامي مقارنا بغيره، ومدى ما يمكن أن يفيد منه، ومجالات المقارنة بغيره، ومن هذا المنطلق يمكن المقارنة بين القصة الخلقية في الأدب الإسلامي والأجنبي ومدى ارتباطها بالحقيقة، وماهية القيم الخلقية التي تحملها، وكيفة التعبير عن تلك القيم، وبهذا تتسع دائرة الأدب الإسلامي المقارن، ويكون نافذة نقف من خلالها على طبيعة الآداب الأجنبية.

٤- ومن ناحية المقارنة بين الآداب الإسلامية

المختلفة، فإن المقصود بالمخالفة بين الآداب لا يقف عند شرط الاختلاف في اللغة، بل يلتقي مع ما نذهب إليه في مفهوم الأدب المقارن من أن تقوم المقارنة مع الاختلاف في اللغة والبيئة (بمفهوم الجنس وأحوال الحياة) تبعا لدورهما في تشكيل عمل يجمع بين الذاتية في الرؤية والمعالجة، ويخضع في تكوينه لتأثير هذين العاملين في تحديد هويته، وأن تظل المقارنة قائمة بين الموضوعات الأدبية وما يقابلها في ميدان الأدب دون غيره من الفنون الأخرى على النحو الذي وجدناه في توسع الاتجاه الأمريكي في الأدب المقارن لينظر إلى تتبع الموضوع في الأجناس الفنية المختلفة.

في الأدب الإسلامي المقارن من الطبيعي أن تكون نقطة البداية هي الأدب العربي لأنه مصدر لكثير من أدباء العالم الإسلامي في بيئاته المختلفة.

٥- والذي نراه أن تنهض المقارنة بدراسة علاقات التأثير والتأثر متى وجدت (الناحية التاريخية)، دون أن تهمل دراسة السمات والخصائص (الناحية النقدية)، فهي في هذه الناحية أميل إلى المنحى الأمريكي في المقارنة. فبدراسة التأثيرات الإسلامية في الآداب نقف على الأثر الإسلامي في الأدب الفارسي والتركي وعوامل سيطرة التأثيرات عليهما حتى جعلتهما جزءاً أصيلا من الأدب الإسلامي، وبهذه الدراسة نستطيع أن نتبين ذلك الأثر في عبوره من الأندلس وصقلية إلى أوربا، ونتبين تأثيراته الواضحة على الأدب الأوربي، ولا نترك مجالا لمكابرة الغربيين وإنكارهم ذلك الأثر أو التقليل من دوره في تطور الأدب الأوربي.

وبالدراسة النقدية المقارنة نستطيع أن نتبين خصائص الأدب الإسلامي وما يتسم به من توازن وإنسانية وإيجابية ومواءمة للفطرة ونشر قيم الحق والخير والجمال. ويمكن التمثيل لذلك بما نراه في قصص الحب العنيف العفيف في الأدب العربي الإسلامي وقصص الحب والفروسية في الأدب الأوربي القديم. فبينما هو في البيئة الإسلامية يتترس بالإيمان بالقضاء والقدر ويتخذ الحرمان من الحبيب سبيلا إلى الترقي إلى حب أسمى وأخلد، فإن الموقف في البيئة الأخرى يقوم على فكرة صراع القدر والتغلب على الآلهة، واتهام القدر بالطيش والحمق، والنفاذ من هذا الصراع إلى الانتقام من الآخرين والهروب إلى الموبقات. ومثل آخر نجده في شعر الطبيعة عند شعراء الرؤية الإسلامية والرومانتيكيين الغربيين، فبينما هو في الجانب الأول أدب إيجابي هادف يبرز صداقة الإنسان لعناصر الكون يدل على أحدية الخلاق العظيم، نراه في الجانب الثاني تهويمات خادعة وهروبا سلبيا يذهل فيه المرء عن دوره في هذه الحياة(٢١).

هـ- المعوقات والمحاذير:

وتتلخص المعوقات والمحاذير التي يمكن أن تعترض سبيل دراسة الأدب الإسلامي المقارن وتنأى به عن حدود الفائدة والموضوعية في: الخشية من التقوقع داخل حدود الزمان والمكان والميدان، وقيامها على لون من العصبية والتحزب ومجافاة طبيعة الفن، والتشابه بين الدراسات وتكرارها في المنحى والإطار.

وميدان البحث في الأدب الإسلامي المقارن يرتبط - أكثر ما يرتبط - بالموضوعات التي حفل بها هذا الأدب، والأجناس الأدبية السائدة فيه، والنماذج البشرية المتناولة لديه، ومسار التيارات الفكرية وتأثيرها في الفن والتصوير، دون أن تبرز في اهتماماته ما تحفل به الآداب الأخرى من ذلك كله، بما في ذلك من حرمان الوقوف على اهتمامات تلك الآداب وإهمال دور التواصل بين الثقافات الإنسانية العامة.

ويأتي الرد على ما يتصل بدعوى التقوقع من داخل النقاط المتقدمة، فعوامل التفاعل والارتباط بين آداب البيئات الإسلامية المختلفة ماتزال قائمة، ووجوه التلاقي والتشابه والاختلاف ما تنفك ممتدة. ألم تشترك الآن في الهموم الثقافية والقضايا المتشابهة التي أفرخها واقعها الأليم في العصور المتأخرة؟، ألا يزال القرآن الكريم والدين القويم يشكلان روحا سارية في مجال الفكر وعروة تربط بين ما تقدمه تلك البيئات من ثمرات أدبية للإنسانية؟، أليس ما ذكر عن حياتها المعاصرة يدفع للبحث في طبيعة المؤثرات الوافدة على الأدب الإسلامي في بيئاته المختلفة، ومدى استجابة أي منها لهذه المؤثرات، والعوامل التي شكلت هذه الاستجابة، وملامح ما نتج عن مخاض ذلك اللقاح من أعمال وتوجهات؟.

وفي قيد المكان نتساءل: هل البيئات الإسلامية منعزلة داخل جزء من العالم لا تتعداه، وبيئات محاصرة لا تتخطاها، أم أنها تنتشر في كل البلاد انتشارا يتفاوت بين الأغلبية والأقلية؟ إن هذا الانتشار يحطم قيود المحاصرة، ويمتد إلى سائر الشعوب والثقافات، ويقف على أبعاد البيئة وآثارها

الذاتية في طوابع الأعمال المتوافقة الاتجاه، ويقدم لنا تفسيرات قيمة وتعليلات صائبة لما يجري حول عامل البيئة في الآداب المختلفة من تساؤلات.

وليس نصيب ادعاء محدودية ميادين الدراسة من الوهم أقل من نصيب انحسار الزمان وضيق المكان فقد ذهبنا إلى اتساع تلك الميادين لتشمل شتى الموضوعات التي تعنى بها مناهج الأدب المقارن العامة ودراساته المتباينة، بل وامتداد إطار الدراسة للمقارنة بينها وبين ما يتصل بها تأثيرا أو تشابها وإن لم تتحقق فيه ملامح الأدب الإسلامي، فليس البحث في ماهية الأدب الإسلامي واهتماماته، وإنما في دراسته مقارنا لما ينطوي تحت لوائه من نتاج، ومقارنا مع غيره من الآداب بحثا عن عوامل التكوين، وتحديد الخصائص والسمات، وإذا كان ثمة أنواع أدبية لا تندرج في إطار الأدب الإسلامي فإن ذلك يدفعنا إلى محاولة استكشاف أسباب الوجود والاختفاء لهذه الأنواع الأدبية مما يساعدنا في دراسة الأدب العام وفق ما نميل إليه من عنايته بدراسة التيارات الأدبية الكبرى والبحث عن أسباب وجودها وغيابها في بعض الآداب.

فقد ذهب بعض دارسي الأدب المقارن إلى نوع من النظرة الشاملة في المقارنة، ذلك أن المقارنة بين الآداب «من شأنها لو أنها كانت شاملة أن توقفنا على فرع جديد من المقارنة، فليس أساس التقارن المشابهة وحدها، ولكن أساسه التضاد أيضا، فالظروف هنا وغيبتها هناك تجعل مجال المقارنة فسيحا في البحث والدرس، وقد تؤثر الدواعي السياسية والاجتماعية في ناحية ما فتفعل على إيجاد أو تشجيع نوع من الأنواع الأدبية، كما تؤثر في غيبتها تأثيرا مضادا، وهذا لا يمنع أننا بصدد مقارنة إن كانت سلبية في ناحية فهي إيجابية في ناحية أخرى»(٢٢).

وثمة أمر آخر لا يغيب عن الذهن، وهو أن هذه الميادين لا تعدو أن تكون عنوانات عامة تتنوع تحتها رؤى الأجيال وثمرات أفكار أبنائها، وألوان آدابهم وصورها التي تختلف من عصر إلى عصر ومن سلف إلى خلف، وتخضع في تنوعها وتطورها لقانون التطور العام الذي لا يقف بالفنون عند إطار ثابت لا تتخطاه، بل يخطو بها خطوات بعيدة في تولد الأشكال الفنية، وتطور الرؤى في المعالجة، وتباين الاهتمامات الآنية التي تفرضها أحداث الحياة، أو بتعبير أعم يصل بها في العصر إلى صورة تتسق في الجمال والتكوين مع ما وصلت إليه حضارة العصر من واقع وما حلقت فيه من آفاق.

والميل إلى اتجاه أدبي معين في الإبداع أو الدراسة لا يمكن أن يكون سبيلا لوسم أصحابه بدعوى التعصب والتحزب إلا بمقدار ما ينبع من هذا الاتجاه من دعوات تكون في مجموعها ما ينهض دلائل قوية لتوجيه تلك الدعوى، وإن لم نسلم بتلك البدهية نكون من المصادرين لحق النفس في التعاطف مع منحى أدبي دون سواه، وهو حق أصيل لو غاب عن ذاكرة الشعوب لما نتج لنا تلك المذاهب الأدبية المختلفة، ولو جاز القول به لحكمنا على الآداب إبداعاً ودراسة بالجمود والتقهقر أمام تداعيات الأيام، ومن ثم فميدان القول طبيعة المنحى الذي يعتنقه المبدع أو الدارس وما يمكن أن يكون فيه من رحابة فكرية، أو يدعو إليه من حزبية ووقوف بالمسيرة عند دائرة الذات، مع ما نعرفه من أن الأدب لون من النشاط الإنساني يجمع بين الذاتية في الصدور والنبع، والموضوعية في المعالجة والهدف، والعالمية في الخطاب والتوجهات.

نخطئ كثيراً في حق أنفسنا حين يقف دور الدراسات العربية عند التعريب والنقل.

والنظر في منطلق ما ندعو إليه وطبيعة الإبداع في الأدب الإسلامي والدرس المقارن فيه ينأى به عن الوسم بذلك وينفي ورود سبيل هذه الدعوى إليه. فالمنطلق ليس التعصب وإنما الحرص على إقامة درس مقارني واع جاد، إذ ينهض به أبناؤه الذين سبروا غوره ونهلوا من مشاربه وانطبعت خصائصه في مكوناتهم الفكرية والثقافية، وإذا كان الغربيون ينادون بأن تكون دراسة الأدب المقارن من خلال المحاور الأدبية الكبرى في العالم فنحن نرى أبناء الشرق الإسلامي أولى بدراسة أدبهم دون غيرهم من الدارسين.

ولاشك أن الأدب الإسلامي يتسم بالإنسانية والتنوع والشمول والتوازن والاتساق مع الفطرة في نظره للكون والإنسان والحياة، وهو لا يحدد شكلا معيناً في التعبير والتصوير «فالقرآن الكريم - الذي يعتبر منهل الأدب الخالد للأدباء الإسلاميين - استخدم القصة والحوار، والمثل، والمواقف، و الخطابية، ودعا إلى المباهلة، ووظف الحدث التاريخي، واعتمد الجدل الفكري، وأسلوب المواجهة، والتقرير والمباشرة، والوعظ المؤثر في سبيل تحقيق أغراضه في هداية الإنسان، وتوجيهه صوب الخالق، فالأشكال متسعة متطورة بشرط الحفاظ على القيم الثابتة»(٢٣).

والأدب الإسلامي المقارن لا يصطدم مع المنهج

العلمي للدراسة المقارنة، ولا ينأى عن التعرض للآداب المختلفة، بل هو يلتقي مع الدراسات المقارنة في المنحى والاهتمامات، ويفيد منها في رصد الظواهر والكشف عن مدى تأدية هذه الآداب لرسالتها في الحياة، وله الحق أن يقدم رؤاه الخاصة في ذلك من حيث كونه عضوا فاعلا من أعضاء الهيكل العام للعلم يدخل في تكوينه، وعليه تبعة إثرائه، والمحك في ذلك ليست النوايا بل الأفعال، والحجج القوية الواضحة لا الغوغائية والتواء الأقوال، وما قدمناه من رؤى سابقة لا يعدو أن يكون خطوة متواضعة في هذا السبيل.

في الأدب الإسلامي المقارن يمكن الوقوف على أثر العوامل البيئية في تلون الموضوع الواحد لدى الشعوب الإسلامية.

ويدفع إلى القول بالتشابه والتكرار ما يتوهمه بعض الباحثين من انحصار موضوعات الأدب الإسلامي المقارن في موضوعات محدودة على النحو الذي حفلت به الدراسات المشار إليها في صدر هذه الدراسة، مثل قصة المعراج، والمجنون، والمقامات، وقصص الحيوان(٢٤).

وطبعي أن توارد الباحثين - التقليديين - على دراسة موضوع من خلال منهج متحد قد يدفع بهم إلى مزلة التكرار والتشابه والترديد، مما يجعلهم لا يقولون إلا معادا من القول مكرورا كما يرى الشاعر العربي القديم، وليس ذلك الشأن عند سائر الدارسين.

على أن إطار القضية يمكن أن يكون سبيلا تؤاخذ به الآداب غير الإسلامية، فقد توارد المبدعون على تصوير نماذج وتناول موضوعات محددة. ونظرة في خطط الدرس المقارن لكثير من الدارسين يجعلها تصل إلى درجة التوافق في الإطار والتشابه في الاستنتاج، وصحيح أن تحديد الأدب بكونه إسلامياً - عند منطلق المقارنة - قد يحدد أبعاد الميدان في جانب طبيعة الفن القولي، ولكن هذه الطبيعة ذاتها تنقض القول بالتكرار، كما أن أصالة الباحث تدفع عنه مأزق التشابه والترديد، فإن أدب أي أمة تحمل مسيرته قافلة الأدباء عبر العصور والأجيال، وهي تتناول موضوعات قد تتحد عنواناتها لكن المعالجة الأدبية تقوم على التنوع لا الاتحاد، والاختلاف لا الاتفاق، وذلك بما تحمله من ثقافة العصر وروح الأديب وذاتية البواعث وعناصر التكوين، فما بالنا إذا كانت تلك الموضوعات تنتقل من شعب إلى شعب ويضفي عليها من شخصيته وبيئته وفكره، إن ذلك أدعى إلى الاختلاف وأغنى للدراسات المقارنة، وأعون على استكشاف جديد لطبائع العلاقات الأدبية بين الشعوب.

وتستطيع طبيعة الأدب الإسلامي - من جانب آخر - أن تدفع عن الدرس الأدبي المقارن ضيق الدائرة التي تلجئ الباحث إلى التكرار والترديد، فهي من ناحية الموضوعات وجدناها متعددة رحبة برحابة الإسلام واتساع نظرته لتشمل شتى عناصر الحياة، فالأدب الإسلامي لا يحدد موضوعات خاصة لا يتخطاها الأديب في التناول على النحو الذي نجده في المذاهب الأدبية التي تقصر اهتماماتها على ما تراه من جوانب الحياة ميدانا لنشاطها الإبداعي، وهو «لا يعالج قضية دون قضية، ولا يقف عند حدث دون حدث، ولا يقتصر على تناول الخير دون الشر، ولا يحرص على التعرض للفضيلة دون الرذيلة، فكل القضايا والأحداث والمواقف يمكن أن تكون موضوعا للأدب الإسلامي، كما يمكن أن تكون موضوعا للأدب غير الإسلامي لأن الفرق ليس في الموضوعات، ولكن الفرق في كيفية تناول الموضوعات وما تقوم عليه من إظهار الرضا عن سلوك بعينه، وتجليته، والتبشير به، أو العكس»(٢٥).

ومن ناحية الميادين فقد وجدناها متعددة في الأدب الإسلامي المقارن تعددها في غيره من الآداب المقارنة، بل إنه يفوقها بتتبع الظاهرة في أكثر من أدبين قوميين في حين أن جل هذه الدراسات تقتصر على دراسة الظاهرة بين أدبين فقط دون تتبع مسيرتها في سائر الآداب، وهي من الكثرة والتنوع بحيث تشمل الأجناس الأدبية، والشخصيات التاريخية، وعلاقات التأثير والتأثر بين آداب الشعوب المختلفة، ودراسة المصادر واستمداد عناصر التكوين الأدبي، وتصوير أمة في إبداع مؤلفين من أمة أخرى. وتلك كلها ميادين يفسح فيها المدى في تعدد المؤلفات وتنوع المعالجة.

مختتمة:

وفي مختتم هذه الدراسة نود أن نحدد النتائج التي انتهينا إليها، وهي أننا ننظر إلى مصطلح الأدب الإسلامي من حيث كونه مذهبا أدبيا يلتقي مع الفن في جماله ومع التصور الإسلامي في جلاله، ولا نقف به عند رؤيته منهجا دينيا فقط، أو نتوسع في إطلاقه على كل ما صدر من نتاج أدبي داخل الحدود الزمانية والمكانية لدين الإسلام، أو اتفق معه دون قصد.

وأن تعميق التعرف على تخومه وأبعاده، ودوره في مسيرة الآداب العالمية، والبعد عن الاعتساف في بعض

الأحكام النقدية، وعن الأثر السلبي الذي تركه الوقوف عند منهج الأدب المقارن في الإطار العام إنما يبدو من خلال مقارنته بغيره من الآداب، وأن وجوب معرفة الذات قبل معرفة الآخرين، ووضوح عوامل الاتصال والتأثير بين نماذج الأدب الإسلامي في بيئاته المتعددة تهيب بنا القيام بتلك المقارنة.

وأن لهذه الدراسة المقارنة فوائد متعددة تتجلى في ترسيخ المعرفة بالأدب الإسلامي، وتدعيم العلائق الثقافية بين بلدانه، وخدمة الآداب المحلية لشعوبه، والتعرف على أثر البيئة في تكوينه.

وأن قوة الأسس التي تسمح بهذه المقارنة وكثرة الميادين المقارنية بين الأدب الإسلامي وغيره وتنوعها في عالمه الداخلي والخارجي تجعل من الدراسة المقارنة للأدب الإسلامي حقلا خصبا يحفل بالتلون والثراء والإيجابية.

وأن موضوعية المنهج تقتضي أن ينبع من التأمل في طبيعة الأدب الإسلامي وقضاياه وعلاقته بغيره مع الأخذ من المناهج الأخرى ما يدعم هذه الموضوعية في المقارنة، ومن ثم تتسنى لنا بلورة المنحى والإطار في نقاط محددة.

وأن ما يمكن أن يوجهه المتشككون في جدية هذه الدراسة من محاذير التقوقع والتعصب والتحزب لا يثبت عند النظر والمناقشة، مما يدفع التردد في القيام بهذا المنحى في المقارنة إن كنا نملك الإخلاص والحب الصادقين لهذا الأدب الإنساني النبيل.

==========

١- الأدب الإسلامي ضرورة، د. أحمد محمد علي، دار الصحوة للنشر والتوزيع ١٩٩١م، ص ٦٣.

٢- لمزيد من التفصيل ينظر مقال: مصطلح الأدب الإسلامي بين أيدي الدارسين لكاتب الدراسة، مجلة الأدب الإسلامي، السنة الثانية، العدد الخامس، رجب ١٤١٥ هـ.

٣- الأدب المقارن، د. طه ندا، دار المعارف، ١٩٨٠م ص ٩٣.

٤ -مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د. إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، ١٩٩٠م، ص٤٣٨.

٥- الأدب المقارن، د. محمد السعيد جمال الدين، ص ٣٨.

٦- بين الأدب العربي والفارسي والتركي، د. حسين مجيب المصري، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥م، ص ٩.

٧- بين الأدب العربي والفارسي والتركي، ص ١٠

٨- ينظر أثر ذلك التوجه في كتابات، د. محمد غنيمي هلال في مجلة فصول، مقال عطية عمر، مج٣، ع ٤ يوليو ١٩٨٣م، ص٢٠، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، د. سعيد علوش، الشركة العالمية للكتاب ١٩٨٧م ص١٤٩ وما بعدها.

٩- الأدب المقارن، د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف ١٩٨٧م ،ص ٢٩، مجلة الرسالة العدد ١١٠٧، السنة ٢٢ أبريل ١٩٦٥م، مقال عبداللطيف صالح: نماذج بشرية هل من تأليف الدكتور مندور ؟!.

١٠- مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، د. عبدالباسط بدر، دار المنارة للنشر، جدة، ١٩٨٥ م، ص٨٣، وينظر في تفصيل تلك الصلات، الأدب المقارن، د. طه ندا، ص ٩٨ وما بعدها.

١١- الأدب المقارن، د. محمد السعيد جمال الدين، دارثابت للنشر، ١٩٨٩م، ص٢٨.

١٢- المدائح النبوية في الأدب العربي، د. زكي مبارك، دارالكاتب العربي للطبع والنشر، ١٩٦٧م، ومؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، د. مكارم الغمري، عالم المعرفة، الكويت، عدد ١٥٥ ص١٣٤ ومابعدها.

١٣- مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن، د. الطاهرأحمد مكي، دار عيد للبحوث والدراسات، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٤٩٢.

١٤- الرحلة إلى الحجاز في الأدب المصري الحديث، رسالة دكتوراه للكاتب، مخطوطة بكلية اللغة العربية بالمنصورة.

١٥- مقدمة الشيخ حمد الجاسر لكتاب: اكتشاف جزيرة العرب لجاكلين بيرين، ترجمة قدري قلعجي فقد ذكر منها كثيراً من هذه الرحلات.

١٦- تأثيرالثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي، د. صلاح فضل، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٥م، ص٤ وما بعدها.

١٧- إقبال والقرآن، د. حسين مجيب المصري، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨م، ص١٠١و١٣٣.

١٨- مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، د. مكارم الغمري، ص٧٣، وجوته العالم العربي، كاتارينا موترن، ترجمة د. عدنان عباس علي، عالم المعرفة، عدد ١٩٤ ص ٢٣٨.

١٩- الأدب المقارن، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط ٣، ص١٨١ وما بعدها.

٢٠- اللغة الفارسية، د. محمد نور عبدالمنعم، دار المعارف، ص ١٥.

٢١- مشاهد الطبيعة في القرآن الكريم، للكاتب، القسم الأول، ص١٨١، القسم الثاني، ص١٧، ٣٨.

٢٢- تيارات أدبية بين الشرق والغرب، د. إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٩٥٢م، ص٧٤.

٢٣- مدخل إلى الأدب الإسلامي، د. نجيب الكيلاني، كتاب الأمة، ١٤٠٧هـ، ص١٤.

٢٤- مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، د. سعيد علوش، ص٦٢١.

٢٥- مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د. إبراهيم عوضين، ص٩٦.